

مجلة المعجمية - تونس

ع 5-6

1990

الخبر : مفهومه ومنزلته في المعجم

بحث : محمد القاضي
كلية الآداب - جامعة تونس 1

ان الخوض في مسألة المعجم التاريخي وما يستوجبه إنجازه من جهد وما يترتب عنه من نفع للغة ومستعملها يضطرنا الى إرساء أسس للتعامل مع المكتوب تختلف عما اجمع عليه أئمة اللغة العرب القدامى ومن جرى مجراهم ذلك ان غايتهم تختلف عن غايتنا، فقد كانوا يضعون حدا فاصلا بين الفصيح من الكلام وغير الفصيح، فيثبتون الاول وينكرون الثاني معتبرين اياه دنسا وهجرا. وجعلوا للفصيح حدودا زمانية ومكانية لا يتجاوزها والا غدا الكلام لاغيا لا يعتد به ولا يحتج، فمصنّفو المعاجم «انما أرادوا التفرقة الدقيقة بين الفصيح من العربية وغير الفصيح، وذلك بوضع قانون للاستعمال الصحيح للكلمات، ويدل هذا الاتجاه - دون شك - على إحساس لغوي دقيق عند اللغويين، ولكنه عاق القوة الحيوية الدافعة في اللغة عن التقدم والتوسع»⁽¹⁾ فكانت المعاجم القديمة لذلك غير مهتمة برصد تحولات

(1) - أوجست فيشر: المعجم اللغوي التاريخي. ط 1. نشر مجمع اللغة العربية - القاهرة - 1967، ص 7.

المعنى التي تصيب بعض المفردات من خلال الاستعمال رسدا منتظما وانحصرت غايتها في اثبات المعنى النمطي القار والتجافي عما سوى ذلك.

اما غايتنا فتمثل أساسا في العودة الى الكتب القديمة لتتبع مختلف المعاني اللائحة بكلمة «الخبر» فيها، اذ لن يكون بإمكاننا ان نستنطق وجوه الاستعمال غير المدون في تلك الاعصر التي ارتبط فيها التدوين بالدين وبما حام حوله. غير أننا لن نقصر همنا على المعاجم، بل سنوجه وجهنا أيضا الى كتب الأدب التي توفر لنا مادة ثرة متعددة الجوانب لا يزال بعضها في حال البكارة وما تحمله من نفرة واستعصاء. ولئن كنا - على هذا النحو - لا نصل بين معاني الكلمة في القديم ومعانيها المستحدثة، فان ما يهون علينا الامر أننا مقتحمون هذه المغامرة سعيا الى غايتين، أولاهما ضبط الدوائر التي يمكن ان ترد اليها معاني كلمة الخبر باختلاف السياقات التي وردت فيها، وثانيتهما محاولة ارساء مشروع ضبط المراحل الكبرى التي قطعتها هذه الكلمة في مسيرتها. ⁽¹⁾ قبل ان نعدد المعاني المتصلة بالخبر ونحاول رصد وجوه التواصل والتنافر بين الاخيار وضروب المعارف التي اكتب العرب على التأليف فيها منذ عصر التدوين لا يد لنا من ان يتساءل عن التطور الذي سلكته هذه الكلمة، وقد رأينا - في هذا المقام - ان نتهدي بها وضعه «فيشر» من مبادئ لتحديد أهم المراحل التي قطعتها الكلمة، اذ رأى انه يحسن في ترتيب المعاني ان ينتقل المرء من العام الى الخاص، ومن الحسي الى العقلي، ومن الحقيقي الى المجازي ⁽²⁾ فكيف كان الامر في هذه الكلمة؟ علينا ان نقنع في هذا المجال بتتبع الكلمة في العربية لاننا لا نملك الى الآن معجما كافيا وافيا يتناول الكلمات العربية من حيث

(1) - معجما... (2) - م. ن. ص

أصلها وجذورها المشتركة في اللغات السامية الأخرى⁽³⁾ ويضع بعضنا
لذلك اعتمادنا على معجمين عربيين هما «القاموس المحيط»
للفيروزبادي و«لسان العرب» لابن منظور، فوجدنا أن المعاني المدرجة
في مادة «خ ب ر» على غير نظام فسينا إلى ترتيبها بعد أن أخضعناها لما
كنا أشيرنا إليه من مقاييس. وقد كان التساؤل يفتقنا بعد قراءة المعجمين
أن ما استرعى انتباهنا في معاني بعض الألفاظ المشتقة من الجذر
الثلاثي «خ ب ر» ارتباطها بالماء، فالخبراء: منقح الماء، والخبرج خبوة:
منقح الماء في الجبل، والخبرة ج الخباري والخباروات والخبار،
منقح الماء في أصوله. فليس من الغريب أن نلاحظ في

ومن هذا المعنى الأسامي تفرع معنى ثان يربط بين هذا الجذر
والأرض، فالخبراء نقاع مستدير مجتمع في الماء والخبر: منبت السدر في
القيعان، والخبار أرض رخوة تتعجم فيه الدواب، والخبار أيضا ما
استرخى من الأرض وتحفر، وهو ما تهور وساخت فيه القوائم. وهو ما
لان من الأرض واسترخى. والصلة بين المعنى الأول أي الماء والمعنى
الثاني أي الأرض طبيعية فيزيائية، إذ الماء مجتمع في ما يشبه المستنقع
ولا يكون ذلك إلا في المواضع الواطئة. ومن هذا المعنى تفرع معنى ثالث وهو ما تنبت الأرض إذ الشأن
في الأرض المنخفضة التي مجتمع فيها المياه. ان يظهر فيها النبات،
فالخبر: شجر السدر والأراك وما حولها من العشب وأحدثه خبرة والخبر:
الزروع والخير: النبات وفي حديث طهفة: نستخلب الخبر أي نقطع
النبات والعشب ونأكله. فمن الطبيعي أن يتصل النبات بالزراعة
فالخبر: ان تزرع على النصف أو الثلث من هذا، وهي المخبرة أي

(3) - فليش حتى تاريخ العرب. ج 1
Henri Fleish: Introduction à l'étude des langues sémitiques.
Adrien-Maisonneuse: Paris, 1947
G. Rabin: Arabiya: (l'arabe pré-classique. Et 2, T1 pp 579-585

المزارعة ببعض ما يخرج من الارض، وهو الخَبْرُ ايضاً، والخبير: الأكار (أي المزارع) ومن اجتماع السائل والكلا والمكان المنخفض نشأ معنى رابع، فالخَبْرُ والخَبْرُ: المَزَادَةُ العظيمة (أي الظرف الذي يحمل فيه الماء كالرأوية والقربة والسطيحة) والخَبْرُ والخَبْرُ ايضاً: الناقة الغزيرة اللبن، وفي هذا شيء من التخفي والاستتار لان الماء في المَزَادَةُ واللبن في الضرع محتجابان احتجاب الواحة التي لا تكون الا في هدأة من الارض، فكان المَخْبَرُ خلاف المنظر.

وكما هو الشأن في كل مكنون غدا بحاجة الى حظ من المعرفة والتجربة والخبرة ليحاط به، فكانت من ذلك المرحلة الخامسة في مسيرة هذه المادة، فالخَبْرُ: المختبر المجرب، والخَبْرُ والخَبْرُ والخَبْرَةُ والخَبْرَةُ والمَخْبَرَةُ والمَخْبَرَةُ كلة: العلم بالشيء، ومنه قولهم: لأخبرن خبرك، اي لأعلمن علمك، وأخبره خُبوره: أي أنبأه ما عنده.

ومن ثمة تولد المعنى السادس، وهو من الخامس بسبب متين، اذ أصبح يعني خلاصة العلم ودليله اي الإعلام فالخَبْرُ ما أتاك من نبا عمن تستخير.

هذه هي المراحل التي بدا لنا ان مادة «خ ب ر» قد قطعتها، وقد ألفينا أهل العلم يتعاورونها وينزلونها من شبكة المعارف العربية منزلة رفيعة حتى غدت مندسة في كل هذه المعارف، شائعة فيها، حاملة لطابع جوهري من طبائع الثقافة العربية الاسلامية في طور نشأتها واشتداد عودها.

حين نردّ الطرف الى المعاني التي نسبها الفيروزابادي وابن منظور الى الكلمات المشتقة من مادة «خ ب ر» نلاحظ انها لم يوليا كلمة «خبر» في معناها الاصطلاحي عناية مخصوصة. فاذا عدنا الى «كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم» ألفينا صاحبه يقول «ان العلماء اختلفوا في تحديد الخبر، فقليل لا يحدّ لعسره، وقليل لانه ضروري، وقليل يحد

واختلفوا في تحديده»⁽⁴⁾.

ومن المنطقي ان نضع حدًا فاصلا بين المفهوم اللغوي للخبر ومفهومه الاصطلاحي، اذ الخبر لغة، حديث او نبأ أو إعلام، وهو «الكلام الذي يدخل فيه الصدق والكذب»⁽⁵⁾ وهو بهذا المعنى لا يرتبط بشكل ولا بإطار ولا بقواعد ولا بشروط مهما يكن نوعها.

أما معناه اصطلاحا فأصيق مجالا، ذلك ان الخبر من الناحية الدينية هو الحديث المنقول عن الرسول. «والمحدثون استعملوه بمعنى الحديث»⁽⁶⁾ وبهذا المعنى استعمل الجاحظ هذه الكلمة في «البيان والتبيين» حيث قال: «وفي الحديث المأثور والخبر المشهور ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: شعيب خطيب الانبياء»⁽⁷⁾.

وهذا المعنى ايضا وردت كلمة «الخبر» عند الحريري في المقامة السّاوية حيث قال «أنست من قلبي قساوة حين حللت ساوة فأخذت بالخبر المأثور في مداواتها بزيارة القبور»⁽⁸⁾، وهو يشير ههنا الى الحديث النبوي «عودوا المرضى واحضروا المقابر فانها تزهد في الدنيا وتذكر الآخرة».

أما من الناحية النحوية فقد اتفق النحاة على ان الخبر هو «المجرد المسند الى المبتدأ»⁽⁹⁾ كقولك زيد قائم. وأما في البلاغة فيقصد بالخبر «الكلام التام غير الانشائي»⁽¹⁰⁾ اذ

(4) - التهانوي: موسوعة اصطلاحات العلوم الاسلامية. ج 2. منشورات شركة خياط للكتب والنشر - بيروت. د. ت ص 411.

(5) - م. ن. ص 411.

(6) - الزبيدي: تاج العروس ج III

(7) - الجاحظ: البيان والتبيين - دار الكتب العلمية. بيروت. د. ت. ج 3. ص 200.

(8) - ابو العباس احمد بن عبد المؤمن القيسي: شرح المقامات الحريرية. ج 1. ط 2. المطبعة الكبرى الميرية، بولاق مصر 1300 هـ ص ص 174 - 175.

(9) - التهانوي: موسوعة اصطلاحات العلوم الاسلامية. ص 410.

(10) - م. ن. ص 410.

الكلام لا يعدو ان يكون خبرا او انشاء وبهذا المعنى وردت الكلمة عند
المناطقه والمتكلمين.

غير ان هذه الكلمة قد فاضت عن الاطر التي ذكرنا وكان لها
حظوة عظيمة في كتب الادب، واختص بها أناس عرفوا بالاختيارين او
أصحاب الاخبار وفيما كتب الجاحظ إشارات تدل على ان الاختيار
ظلت مرتبطة بالمشافهة، فكانت بذلك في تقابل مع المكتوب، يقول:

«وقد جمعنا في هذا الكتاب جملا التقطناها من أفواه أصحاب
الاخبار»⁽¹¹⁾ ويقول متحدثا عن احدى الخطب «وأول هذا الكلام

مستكره، وهو موجود في كل كتاب، وجار على لسان كل صاحب
خبر»⁽¹²⁾ وهو يردف ذلك باحتراز واضح يلقي فيه على عاتق الراوي

مسؤولية صدق الخبر او كذبه، ويحصر مهمته هو في التدوين فيقول
«وانما نكتب لكم ونخبر بها بسمعنا والله أعلم بأصحاب الاخبار وبكثير

منهم»⁽¹³⁾ ولعل هذا المعنى يؤكد ما جاء في الاحاديث النبوية من الربط بين
الخبر وبين معان واضحة الصلة بالمشافهة من ذلك قوله صلى الله عليه

وسلم «ليس الخبر كالمعاينة»⁽¹⁴⁾. وفي الحديث مقابلة صريحة بين الخبر
بمعنى السماع والمعاينة اي المشاهدة، وقوله «علة المتوفي عنها زوجها من

يوم يأتيها الخبر»⁽¹⁵⁾، وقد وردت كلمة الخبر ههنا بمعنى الشعبي، وقوله
«أبكي على خير السباء انقطع»⁽¹⁶⁾ ومعنى الخبر ههنا التوخي.

على أننا كثيرا ما نجد كلمة الاخبار بصيغة الجمع في عتاوين

(11) - الجاحظ: البيان والتبيين، ج 2، ص 9.

(12) - م. ن. ج 1، ص 202.

(13) - م. ن. ج 2، ص 29.

(14) - أ. ب. ن. ج 1، ص 29.

(15) - م. ن. ج 5، ص 5.

(16) - م. ن. ج 5، ص 5.

كتب تدل على سرد للأحداث يسائر فيه صاحبه حوادث التاريخ على غرار «أخبار اليمن» لعبيد بن شربة الجرمي أو «أخبار مكة» للآزرق⁽¹⁷⁾ وفي هذا السياق تندرج الكتب التي أشعار اليهبة ابن النديم في «الفهرست» في أخبار الاخباريين والرواة والشياطين وأصحاب السير والأحداث [17] وفي أخبار الملوك والكتابات والمترسلين وعمال الخراج وأصحاب الدواوين وأسماء كتبهم⁽¹⁷⁾ وقد أورد صاحب «الفهرست» عناوين كتب كثيرة بلغ عددها 105 حسب فهرس الكتب الذي أثبتته محقق «الفهرست» رضا تجدد المازندراني، منها «كتاب أخبار الحجاج» و«كتاب أخبار الحسن بن علي ووفاته» و«كتاب أخبار خلفاء بني العباس» و«كتاب أخبار صاحب الزنج» وغيرها وهي عناوين توجي بان الغرض من وضع هذه الكتب تاريخي إذ يروم أصحابها فيها أن يجمعوا الروايات التي تعرضت إلى شخصية أو جماعة أو عصر، ولعل دورهم لا يعدو النقل والجمع والترتيب، إلا أنه ربما تسببت في ذلك غير أن ابن النديم يذكر عناوين كتب أخرى من قبيل «كتاب أخبار الجن» و«كتاب أخبار الجن وأشعارهم» وهي تنأى جئاً بدهة عن السياق التاريخي وتدخل في حيز جديد لا يحتمل الواقع التاريخي، وإنما تتخلله الأساطير والخرافات والأعاجيب.

هذا النوسان بين التاريخي والأسطوري واضح تمام الوضوح في كتاب من أقدم كتب الأخبار هو «أخبار عبيد بن شربة الجرمي في أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها»⁽¹⁸⁾، فالصيغة التاريخية بارزة في عنوان الكتاب وفي متنه إذ يوصف فيه عبيد بأنه «أدرك ملوك الجاهلية وهو أعلم من بقي اليوم في أحاديث العرب وأنسابها»⁽¹⁹⁾. غير أن الكتاب مكتظ

(17) - ابن النديم: الفهرست - تحقيق رضا تجدد. دار المسيرة - بيروت ط 3. 1988 - ص ص 101 - 129.

(18) - طبع في مجلد واحد مع كتاب النجاشي للشيخ ابن عثمة المطبعة الخيرية بآخرة المعارف العثمانية. حيدرآباد - الهند. 1347 هـ.

(19) - م. ن ص 312.

بأخبار أسطورية من قبيل ما ذكر عن أبرهة بن الرأث من أنه «كان يدعى ذا المنار، وكان من اجمل اهل زمانه فيما يذكر فعشقتة امرأة من الجن يقال لها العيوف ويروى انها الهيوف بنت (كذا) الرابع، فتزوجها فولدت له العبد بن أبرهة . . .»⁽²⁰⁾.

فلا شك والحالة هذه في ان ما كتبه شارل بلا في مقال «حكاية» بدائرة المعارف الاسلامية من ان «لفظ الخبر وان لم يكن صادقا كله في نظر النقاد فليس من الجائز مبدئيا ان يستعمل للدلالة على قصة مخترعة»⁽²¹⁾ يحتاج منا الى مزيد الثبت.

ومن هنا يمكن ان نتحدث عن الخبر بوصفه مندرجا في دائرة مخصوصة هي دائرة القصص فالسمعي يذكروا في «الانساب» انه «يقال لمن يروي الحكايات والقصص وال نوادر الاخبار»⁽²²⁾.

ولئن كانت الاخبار ههنا اسما عاما دالا على الكل الذي تندرج فيه فنون قصصية دنيا، فانها يمكن ان تكون دالة على الجزء اذ هي عنصر من العناصر التي تتألف منها ثقافة القصاص. فالجاحظ يقول «ومن القصاص ابو بكر الهذلي [. . .] وكان خطيبا بينا صاحب اخبار وآثار»⁽²³⁾ وهذا الكلام يثني بأن الاخبار من مكونات القصص.

غير أننا نعثر في مقدمة كتاب «البخلاء» على اشارة بالغة الشأن في هذا السياق تقطع بوجود ضرب من الاحتواء الذي لا يبعد ان يكون مراتبيا. يقول ابو عثمان، «فاما ما سألت من احتجاج الاشحاء ونوادير أحاديث البخلاء فسأوجدك ذلك في قصصهم - إن شاء الله تعالى - مفرقا، وفي احتجاجاتهم مجملا، فهو اجمع لهذا الباب من وصف ما

(20) - م . ن . ص 406 .

(21) - Charles Pellat: Hikaya: EI 2. p 381.

(22) - السمعي: الانساب. ص 21 .

(23) - الجاحظ: البيان والتبيين. ج 1 ص 196 .

عندي دون ما انتهى الي من أخبارهم على وجهها»⁽²⁴⁾، ومن هذا القول يتجلى لنا أن النوادر تندرج في القصص وان القصص تندرج في الاخبار. ومن هذه المرتبة يتضح معنى الخبر حتى يتاخم حدود الثر فيستعمل مقابلا للشعر «ومثل هذا لا يثبت الا بان يستفيض في الشعر ويظهر في الخبر»⁽²⁵⁾.

ولئن كانت لفظة «الخبر» على هذا النحو من التقلقل والتذبذب والتراوح بين الضيق والاتساع، فان في الثقافة العربية فنونا اخرى او قل ضروبا من المعارف ارسخ قدما، مما يمكننا من دراسة الوشائج التي تربط بينها وبين الاخبار.

فليس من شك في ان الشعر قد نما بمعزل عن الاخبار ولعل هذا ما يفسر لنا الفصل بينهما في عبارات من قبيل ما أورده ابن قتيبة في كتاب «المعارف» عند حديثه عن يزيد بن بكر بن داب، وقد قال عنه إنه «كان عالما بأخبار العرب وأشعارها»⁽²⁶⁾، غير ان هذا التمييز بينهما ليس طلاقا، فما اكثر ما تعج الاخبار بالاشعار التي تضمّن في النص الثري وكأنها تشد أزره وتشهد بصحته. وهذه الظاهرة متقدمة نجدها عند عبيد بن شرية الجرهمي الذي يروي الخبر ويرفده بشعر فيقول له معاوية «لقد جئت بالبرهان في حديثك يا عبيد»⁽²⁷⁾، وهو في بعض الاحيان يستنشده شعرا «قال معاوية أقيّل في ذلك شعرا؟»⁽²⁸⁾ ولعل ذلك متأث من منزلة الشعر وعظم شأنه عند العربي، وهي منزلة دونها منزلة الخبر. يشهد على ذلك ما جاء في «أخبار اليمن» «قال معاوية وأبيك لقد أتيت

(24) - الجاحظ: النجلاء - تحقيق طه الحاجري. دار المعارف بمصر. ط 4 - 1971 - ص 5.

(25) - م. ن. - ص 213.

(26) - ابن قتيبة: المعارف. تحقيق ثروت عكاشة. مطبعة دار الكتب - مصر. 1960 - ص 538.

(27) - عبيد بن ثرية الجرهمي: اخبار اليمن. ص 330.

(28) - م. ن. - ص 335.

وذكرت عجباً من حديثك عن عاد وقد علمت ان الشعر ديوان العرب
والدليل على احاديثها وافعالها والحاكم بينهم في الجاهلية وقد سمعت
رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول «ان من الشعر لحكماً» [. . .]
فهات اسمعني ما حفظت»⁽²⁹⁾
ولعل هذه الهيمنة للشعر على النثر هي التي يدل عليها صريح
قول الجاحظ في «البيان والتبيين» حيث جعل الشعر أشمل من الاخبار
بلى حاويها. يقول «لو لا شعر الفرزدق لذهب نصف اخبار
الناس»⁽³⁰⁾ ويمكن ان يكون هذا باباً للخوض في مسألة المفاضلة بين
الشعر والنثر وازدراء القصاص على نحو ما يظهر في «البيان والتبيين»
ومن المعارف القارة عند العرب منذ الجاهلية العلم بالانساب،
وقد اشتهر من النسابين دغفل النسابة والنسابة البكري وابو اليقظان
النسابة وهشام الكلبي وغيرهم. وقد عقد ابن النديم في «الفهرست»
المقالة الثالثة لـ «أخبار الاخباريين والنسابين واصحاب الاحداث
والآداب»⁽³¹⁾ ومختلف الاستعمالات الواردة في «الفهرست» تدل على
ان الاخبار تختلف عن الانساب. من ذلك وصفه لعبد الرحمان بن هرمز
بكونه «أعلم الناس بانساب قريش واهبارهم»⁽³²⁾، وعادة ما تجعل
الانساب في درجة واحدة مع الاخبار والاشعار، فالشرقي بن القطامي
«أحد النسابين الرواة للاخبار والانساب والدواوين»⁽³³⁾ كما كان حماد
«راوية للاخبار والاشعار والأنساب»⁽³⁴⁾. ويتجلى ذلك في بعض
عناوين الكتب الجامعة بين الانساب والاخبار من قبيل كتاب ابي
اليقظان النسابة «كتاب نسب خندف وأخبارها»⁽³⁵⁾.

(29) - م. ن. - ص 352 .

(30) - الجاحظ: البيان والتبيين. ج 1. ص 321 .

(31) - ابن النديم: الفهرست. ص 101 .

(32) - م. ن. - ص 45 .

(33) - م. ن. - ص 102 .

(34) - م. ن. - ص 104 .

(35) - م. ن. - ص 107 .

غير أننا نجد أحيانا ان العلاقة بين الاخبار والانساب علاقة احتوائية، فهذا ابن النديم يتحدث عن سعد القصير فيصفه بأنه «كان ناسبا، وعنه اخذ العتبي اخبار اهلهم ومناقبهم وأشعارهم»⁽³⁶⁾، ومثل هذا الاستعمال يشي بأن الاخبار لا تعدو ان تكون جزءا من الانساب. أما ابن خلدون في «المقدمة» فإنه يعرف الأدب بكونه «ذكر المهم من الانساب الشهيرة والاخبار العامة»⁽³⁷⁾ وكأنه بذلك يقلب المعادلة فيجعل الاخبار - وقد وصفها بالعامة - أعم من الانساب التي تغدو - والحالة هذه - جزءا من الاخبار، ومهما يكن من امر فان التراط بين الاخبار والانساب أيا كان مغزاه دال على ان اهل العلم كانوا يميزون بينها وعلى ان الخبر وثيق الصلة بالجانب البيوغرافي التاريخي. وإذا نظرنا في الصلة بين الاخبار والطبقات وجدنا ان الطبقات قوامها الشعر المعزز بالاخبار المسندة شأن «طبقات فحول الشعراء» لابن سلام الجمحي، وقد دأب فيها على استعمال فعل «أخبرنا» وان كانت الاخبار ههنا متصلة اوثق اتصال بالشعر فهي في خدمته توضح مناسيته او رأى النقاد فيه، ومن ثمة جاز لنا القول ان الطبقات انما تعتد بالخبر من حيث هو عنصر لتوضيح الاشعار. فالطبقات حينئذ أشمل من الاخبار وأعم.

وكذا الامر في الامثال التي تردف عادة بما يفسرها من ظروف قولها وشخصية قائلها وغير ذلك، ولكن صرح الميداني بقوله: «ذكرت في كل مثل من اللغة والاعراب ما يفتح الغلق، ومن القصص والاسباب ما يوضح الغرض ويسيق الشرق»⁽³⁸⁾، فان حمزة بن الحسن الاصبهاني (ت 351هـ) يقول في «الدرة الفاخرة في الامثال السائرة» «أبدأ الآن في

(36) - م. ن. - ص 103.

(37) - ابن خلدون: المقدمة - دار الكتاب اللبناني - 1956 - ص 1038.

(38) الميداني: مجمع الامثال - تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد - ج 1 - ط 1 - 1959

مطبعة السعادة بمصر - ص 4.

تنسيق الامثال [. . .] مفسرة باسبابها واخبارها»⁽³⁹⁾. والناظر المحقق في هذين القولين يرى أنهما دائران على تصور واحد، يتمثل في ان المثل يحتاج الى توضيح الاسباب التي قيل فيها والقصة التي أدت الى قوله، الا ان الميداني استعمل عبارة «القصص والاسباب» في حين استعمل الاصبهاني عبارة «اسبابها واخبارها»، ويؤول بنا ذلك الى نتيجتين: أولها ان الخبر والقصة استعملتا في سياق واحد فهما اقرب الى ان يكونا مترادفين، وثانيتهما ان الخبر - في هذا المعنى - قصة يؤتى بها لتوضيح المثل وتأطيره، فهو بذلك داخل تحتة.

ولعلنا يمكن ان نجعل هذا الرأي منطبقا ايضا على كتب التراجم، فهذا ابن قتيبة في «الشعر والشعراء» يتحدث «عن الشعراء وأزمانهم وأقدارهم وأحوالهم في أشعارهم وقبائلهم وأسماء آبائهم ومن كان يعرف باللقب او بالكنية منهم وعمما يستحسن من أخبار الرجل ويستجد من شعره»⁽⁴⁰⁾. وظاهر ان الاخبار ههنا جزء من أدب التراجم كما انها جزء من أدب السيرة. فكأنها - والحالة هذه - غدت مادة أولية تتحكم في كل أضرب التواليف التي ازدهر امرها منذ الصدر الاول من الحضارة العربية الاسلامية.

على هذا النحو حاولنا ان نتبع معاني «الخبر» في المعاجم اللغوية ومن الناحية الاصطلاحية وفي كتب الادب، وسعينا الى اثاره جملة من القضايا واستجلاء فئة من الخصائص التي تعلقت بهذه الكلمة من خلال اوجه الاستعمال المختلفة التي اتصلت بها والسياقات المتنوعة التي وردت فيها.

ولئن كانت معاني الكلمة في المعاجم غزيرة تنم عن تطور في

(39) - حمزة بن الحسن الاصبهاني: الدرر الفاخرة في الامثال السائرة. تحقيق عبد المجيد قطامش، ج 1 دار المعارف بمصر 1972 - ص 67.
(40) - ابن قتيبة - الشعر والشعراء - علق عليه ووضع حواشيه د. محمد يوسف نجم ود. احسان عباس. دار الثقافة. بيروت. ج 1 ص 7.

دلالاتها، فانها بعد الاسلام قد وجدت مجالا آخر للتطور اذ تمحضت في مرحلة اولى للمشاهدة والإنباء. وبذلك تخلصت من معانيها المادية «الماء والارض والنبات وغيرها». ثم تسربت بعد ذلك الى مجال التأليف فاخذت معاني مختلفة حسب السياق وربطتها بمختلف المعارف التي صنّف فيها العرب علاقات متعددة الوجة.

غير ان هذه الكلمة العجيبة الثرية قد افتقرت في العصور المتأخرة أيما افتقار حتى كاد أمرها في عصرنا ينحصر في الدلالة على الانباء التي يتلقاها المرء أو تذاق في وسائل الاعلام المكتوبة والمسموعة والمرئية او الاحداث الطارئة المتعلقة بالافراد وغيرهم. ولكننا لم نتطرق في عملنا الى هذا الوجه من وجوه التحول الذي شهدته هذه الكلمة، واقتصرنا على تطور الكلمة معنويا في العصور المتقدمة.

ومهما يكن من امر فان تنوع مراجعنا وامتداد الفترة الزمانية التي أخذت منها يجعل محاولتنا هذه عرضة للقصور. فليس الامر في نظرنا الا تحسسا لموضوع لا يزال محتاجا الى العودة اليه والاستقصاء فيه بمزيد من الدقة والشمول.

محمد القاضي